

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

— حِينَ تَجْتَوِ الْأُمَمَ —



تَأْلِيف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الْجَانَّةِ

حِينَ تَجْتَاوِ الْأُمَمُ

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

حين ترفع السورة عينيك من غبار الطريق يا صاحبي، ليست سورة الجاثية من السور التي تسمح لك أن تمر بها مسرعاً، ثم تخرج منها كما دخلت. إن لها يداً خفية تمسك بعينيك أولاً فترفعهما إلى السماء، ثم تهبط بهما إلى نفسك، ثم تدفعك دفعاً إلى مشهد لا تبقى فيه نفس واقفة على قدميها، لأن الأمم كلها قد جثت، وسقطت معها أوهام القوة، وألقاب السيادة، وزينة التاريخ، ولم يبق في الأفق كله إلا سلطان الحق.

إنها سورة تبدأ والإنسان قائمٌ ينظر إلى العالم، وتنتهي وهو جاثٍ بين يدي رب العالمين. وبين القيام والجثو تقع الحكاية كلها.

تقع قصة الإنسان حين يرى ولا يبصر، ويسمع ولا يستجيب، ويعيش داخل بحر من الآيات ثم يطلب آيةً أخرى. تقع قصة العقل حين يفتح له الكون كتاباً، ثم يختار أن يغلقه. وتقع قصة الهوى حين يتضخم في صدر صاحبه حتى لا يعود مجرد رغبة، بل يصير مرجعاً خفياً يأمر وينهى، ويحل ويحرم، ويقبل من الحق ما وافقه ويرد منه ما آله. ثم تقع في آخر الطريق تلك اللحظة التي تنتهي فيها حرية المكابرة، وتبدأ شهادة الكتب، فلا يعود الإنسان قادراً أن يصنع لنفسه روايةً أخرى عن نفسه؛ لأن الكتاب قد بدأ ينطق.

وهذه من مهابة سورة الجاثية: أنها تنزع من الإنسان حق الاحتياي على الحقيقة. في الدنيا تستطيع أن تسمي خوفك حكمة، وبخلك اقتصاداً، وجبنك تعقلاً، وكبرك كرامة، واتباعك للهوى حرية، وانصرافك عن الله انشغالاً بالحياة. تستطيع أن تعيد طلاء الأشياء حتى لا تراها على حقيقتها. لكن السورة تسير بك قليلاً قليلاً حتى تبلغ بك إلى يوم يقول الله فيه:

﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾.

وهنا تنتهي البلاغة التي نخدع بها أنفسنا.

إنها سورة الحقيقة حين تُجرد من مساحيق الإنسان.

ولذلك لا ينبغي أن نقرأها قراءة عابري بحث عن معنى آية منفردة، بل قراءة مسافري راقب كيف تُنقل روحه من مشهد إلى مشهد؛ من كتاب نازل من فوق، إلى سماوات وأرض مفتوحتين على الدلالة، إلى جسد الإنسان وما حوله من دواب، إلى ليل ونهار ومطر

ورباح، ثم إلى إنسان يسمع كل ذلك ويصبرُ مستكبراً، ثم إلى هوى يتحول إلهاً، ثم إلى تاريخ
بني إسرائيل، ثم إلى شريعة واضحة، ثم إلى دهرين اختزلوا الوجود في الزمن، ثم إلى نفخة
تجمع الناس، ثم إلى أمم جاثية، ثم أخيراً إلى كلمة تضع الوجود كله في ميزانه الصحيح:
﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.
كأن السورة تقول لك منذ بدايتها: سنريك هذا الكون كله، ثم سنريك نفسك فيه، ثم
سنريك نهايتك، حتى تعرف لمن ينبغي أن يكون الكبرياء.

كِتَابٌ يَنْزِلُ... وعالمٌ يَسْتَقِظُ

يا صاحبي، قف عند الباب الأول ولا تتعجل الدخول.

﴿حَمْدُ تَنْزِيلِ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

إن أول ما تفعله السورة أنها تحدد لك جهة الصوت.

ليست الكلمات صاعدةً من الأرض.

ليست ثمرة عبقرية بشرية أرهقها السؤال فابتكرت لنفسها أجوبةً عن الكون والمصير. ليست صدى ثقافة محلية، ولا ارتداداً لنفس قلقة، ولا تجربة روحانية حاول صاحبها أن يمنحها سلطة فوق الناس.

إنه تنزيل.

وهذه الكلمة وحدها تغَيِّرُ هيئة الإنسان وهو يقرأ.

فالتنزيل يعني أن السماء لم تترك الأرض مكتفيةً بتخميناتها، وأن الإنسان لم يُلْقَ في الوجود ثم قيل له: اصنع وحدك تفسيراً لوجودك. هناك كلام جاءه من خارج حدود التجربة البشرية، من العليم بما كان وما يكون، ومن الذي خلق العقل الذي يسأل، والكون الذي يسأل عنه العقل.

فإذا استقرت حقيقة التنزيل في القلب، لم يعد القرآن رأياً بين آراء، بل صار الميزان الذي تُعرض عليه الآراء.

ولهذا لم يقل: تنزيل الكتاب من قوة مجهولة، بل قال:

﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

العزیز، فلا يغلب أمره ما تمرد عليه البشر.

والحكيم، فلا يقع شيء في ملكه خارج موضع الحكمة.

وبين العزة والحكمة يطمئن قلب المؤمن إلى أمرين عظيمين: أن الحق الذي يحمله ليس حقاً ضعيفاً لأن أهله قد يُستضعفون، وأن تدبير الله ليس عبثاً لأن بعض أحداثه قد لا نفهم حكمها فوراً.

كم من مرة يقيس الإنسان الحقَّ بعدد حامله، فإذا قلوا توجس! ويطيس الباطل باتساع سلطانه، فإذا انتفش خاف! فتأتي كلمة العزيز لتعيد ترتيب الموازين: ليست قوة الفكرة في كثرة المصنفين حولها، بل في الجهة التي جاءت منها.

ثم تأتي الحكيم كي تحرس القلب من سؤال القلق: لماذا يقع هذا؟ لماذا يتأخر ذاك؟ لماذا
ينتصر الباطل لحظة؟ لماذا يُبتلى أهل الحق؟
لأن الذي أنزل الكتاب عزيزٌ لا يعجز، حكيمٌ لا يعثر.
هكذا يبدأ اليقين.
لا يبدأ من مشاهدة العالم، بل من معرفة مَنْ أنزل الكتاب الذي سيعلمك كيف تشاهد
العالم.
وهنا تقع واحدة من أعمق التحولات في السورة: القرآن لا يطلب منك أن تغادر الكون
لكي تؤمن، بل يعطيك العين التي ترجع بها إلى الكون فتري فيه ما لم تكن تراه.
إن الوحي لا يطفئ العقل.
إنه يشعل مصابيح.

حين تتحول السماء من سقفٍ إلى آية
يا صاحب القلب الذي أتعبه الاعتقاد، ارفع عينيك.
بعد أن أخبرتك السورة من أين نزل الكتاب، فتحت أمامك الكتاب الآخر، الكتاب الذي
لا صفحات له، لأن صفحاته هي السماوات والأرض:
﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.
تأمل التعبير: في السماوات والأرض.
لا يقول إن السماء كلها آية واحدة فحسب، بل كأنك أينما أدت النظر داخل هذا
الآتساع دخلت في حقل من العلامات. الفضاء نفسه مزدحم بالدلالة، غير أن كثرة
الألفة جعلتنا فقراء إلى الدهشة.
إن أعظم ما يفعله الاعتقاد بالإنسان أنه يحول المعجزة إلى شيء عادي.
تشرق الشمس كل يوم، ولذلك لا ندهش.
يأتي الليل كل يوم، ولذلك لا نتساءل.
ينبض القلب آلاف المرات، ولذلك لا نسمعه إلا حين يختل.
نتنفس بلا أمر نصدره للرئتين، وننام دون أن نعرف أين يذهب وعينا، ونستيقظ دون أن
نعرف كيف عاد، ونقف على كرة هائلة تجري في الفضاء ثم نتحدث عن كل هذا كما لو
كان بديهاً لا يستحق أن يُرى.
وجاء القرآن ليكسر هذا التخدير الذي يصنعه التكرار.
إن المؤمن ليس إنساناً يرى أشياء مختلفة بالضرورة، بل قد يكون إنساناً يرى الأشياء نفسها
بعين مختلفة.
يرى الجميع السماء، لكن المؤمن يرى فيها أثر الحكمة.
يرى الجميع المطر، لكنه يسمع فيه خطاب الرحمة.
يرى الجميع تعاقب الليل والنهار، لكنه يدرك وراء هذا الانضباط يد القدرة والتقدير.
ليس معنى ذلك أن الله تعالى يحلُّ في الأشياء أو يشبهها؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً،
وإنما يرى المؤمن في الأشياء آثار قدرته ودلائل حكمته وشواهد ربوبيته. فهو كلما اتسع
نظره في الخلق ازداد علماً بعظمة الخالق، وكلما أبصر إحكام الصنعة شعر بصغره أمام
الصانع.
ومن هنا كانت السماء مدرسة تواضع.

كم يبدو الإنسان كبيراً حين يحبس نفسه داخل غرفته!
وكم يصغر حين يرفع رأسه إلى المجرات!
تتكاثر أعماله، وأمواله، ومناصبه، وخصوماته، ويخيّل إليه أنه مركز الوجود؛ ثم ينظر ليلةً صافية إلى هذا المملوك المترامي، فإذا الأرض التي يتقاتل الناس عليها ذرة، وإذا المدن التي تتباهى بناطحاتها نقاطاً ضائعة، وإذا الإنسان الذي يتكبر على أخيه لا يكاد يُرى.
غير أن الغريب أن هذا الكائن الصغير أُعطي عقلاً يستطيع أن يقرأ هذا الاتساع كله بوصفه آية.

وهنا تظهر كرامته الحقيقية.

ليست كرامة الإنسان في حجمه داخل الكون، بل في قدرته على فهم معنى الكون.

أقرب الآيات إليك... أنت

يا من يطوف ببصره في الآفاق بحثاً عن البرهان، عد الآن إلى أقرب شيء إليك.

إليك أنت.

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

بعد السماوات والأرض تهبط السورة بك فجأة إلى جسدك.

كأنها تقول: إن ضاق بك الأفق، فانظر إلى اليد التي تقلب بها الصفحة. انظر إلى العين التي تقرأ. إلى الدم الذي يمشي فيك دون أن تأمره. إلى قلبك الذي يعمل قبل أن تعرف معنى القلب، وسيظل يعمل وأنت نائم، وغافل، ومشغل، وربما عاصٍ.

أليس عجباً أن يحمل الإنسان جسداً كاملاً لا يعرف معظم ما يجري داخله؟

كم جهازاً يعمل فيك الآن دون إذنك؟

كم خلية تموت، وكم أخرى تولد؟

كم إشارة تعبر أعصابك؟

كم عملية تصحيح وصيانة واستجابة ومقاومة تجري في الظلام الداخلي لجسدك بينما أنت مشغول بمحادثة عابرة؟

نحن نسكن أجسادنا أكثر مما نعرفها.

ولهذا كان الإنسان نفسه من أعجب أدلة الله عليه.

إنك لا تحتاج دائماً إلى السفر بعيداً لتجد آية.

قد تحتاج فقط إلى أن تضع إصبعين على معصمك، وتعد النبضات.

وكل نبضة سؤال.

من جعلها تبدأ؟

ومن أبقاها كل هذه السنوات؟

ومن يملك أن يمنحها النبضة التالية؟

نعيش عادةً كأن النبضة القادمة حق مكتسب، مع أنها عطية جديدة لم تصل بعد.

وهذا الإدراك وحده قادر على أن يغيّر علاقة الإنسان بالحياة. فليست حياتك رصيذاً

موضوعاً كاملاً في حسابك، بل هي دفعات متتابعة من الإذن الإلهي: نفس بعد نفس،

ونبضة بعد نبضة، وصباح بعد صباح.

ثم توسع السورة الدائرة:

﴿وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ﴾.

يبث.

لفظة تشعرك بالحياة وهي تنتشر في الأرض.

مخلوقات تمشي فوقها، وتحفر تحتها، وتحلق في فضائها، وتعم في مائها؛ عالم من الحياة لا يحصي الإنسان أنواعه، ولكل نوع نظامه، وغرائزه، وأقواته، وطرائق بقاءه وتكاثره وهجرته ودفاعه.

إن الأرض ليست صامتة كما تبدو.

إنها تضحج بالحياة.

ولكل حياة منها باب يفتح على معرفة الخالق.

الغلة التي تهتدي، والطائر الذي يهاجر، والنحلة التي تبني، والمخلوق البحري الذي يسير في ظلمة الأعماق، كلها تضع أمام العقل سؤالاً واحداً بأشكال لا تنتهي:

من علم؟

من قدر؟

من هدى؟

وحين ينضج السؤال يتحول من معرفة إلى يقين.

ولهذا ختمت الآية:

﴿آيَاتُ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

فالكون لا يعطي سره الكامل للعين وحدها.

لا بد من قلب مستعد لليقين.

الليل والنهار: المعجزة التي قتلها التكرار
يا صاحبي، تخيل لو أن الليل نزل على الأرض لأول مرة.
لو أن البشرية عاشت عمرها كله في النهار، ثم أطفئت الشمس فجأة، ورأت لأول مرة
سواد السماء، وظهرت فوقها النجوم؛ أي رعدة كانت ستمر في القلوب؟
وتخيل لو أن الأرض ظلت في ليلها قرونًا، ثم انشق الأفق ذات صباح عن أول خيط من
الضوء؛ أي عيد كوني كان سيقام؟
لكننا لأننا نرى المعجزة كل يوم لم نعد نسميها معجزة.

وهنا تقول الجاثية:

﴿وَإِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.
تأمل كيف تتحرك الآية.

ليل ونهار.

ثم سماء تمطر.

ثم أرض ميتة تحيا.

ثم رياح تتصرف في الجهات.

المشهد كله حركة.

كأن السورة تريد أن توقظ فيك الإحساس بأن الكون ليس ديكوراً جامداً حول
وجودك؛ إنه فعل متجدد.

ليل يجيء..

ونهار يذهب.

ماء ينزل.

أرض تحيا.

رياح تتصرف.

وأنت داخل هذه الحركة محمول بنعمة لا تكاد تشعر بها.

ويصف الله الماء هنا بأنه رزق.

وهذا يحجر العين من ظاهر الأشياء.

أنت ترى قطرات ماء، والوحي يقول لك: انظر أبعد، هذا رزق.

ترى سحاباً، لكن في السحاب خبئاً لم يُخبز بعد، وثمره لم تنضج، وعشباً لم ينبت، وحليماً لم يُحلب، وحياءً لم تظهر.

كم من الأشياء تكون في صورة شيء واحد بينما تحمل في جوفها آلاف الصور القادمة! تنزل القطرة من السماء ولا تعرف أي مصير أعده الله لها؛ لعلها تدخل جذر شجرة، ثم تصير في ثمرة، ثم يأكلها طفل، فتصبح جزءاً من جسده. ولعلها تجري في وادٍ، أو تستقر في جوف الأرض سنين، أو تحمل الحياة إلى أرض حسبها أصحابها قد انتهت.

﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

ومن يستطيع أن يرى الأرض الميتة تحيا ثم يستبعد البعث؟ إن الذي يعيد اللون إلى التراب قادر على أن يعيد الأرواح إلى الأجساد. وكأن الله وضع أمام أعيننا بروفة مصغرة للقيامة تتكرر كل موسم، لكن الإنسان يمر بها ثم يسأل متعجباً: من يحيي العظام وهي رميم؟ إن مشكلة الإنسان ليست دائماً نقص الأدلة. أحياناً تكون المشكلة أنه لا ينظر طويلاً إلى الأدلة التي بين يديه.

الريح التي لا تُرى... وترى آثارها
يا من لا تصدق إلا ما تراه، أخبرني عن الريح.
أترى الريح؟
لا.
لكن الشجرة تخبرك أنها مرت.
والغبار يخبرك.
والموج يخبرك.
وبرودة جلدك تخبرك.
وهكذا يتعلم العقل درساً مبكراً: ليس كل موجود يجب أن يقع تحت العين مباشرة؛ فقد
تعرف الشيء بآثاره.
﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.
تصريف.
مرة تأتي رخاءً.
ومرة تحمل سحاباً.
ومرة تلقح.
ومرة تدفع السفن.
ومرة تكون عاصفةً تذكر الإنسان بأن هذا الكوكب الذي ظنه مستأنساً لا يزال جندياً في
ملك الله.
إن الهواء الذي لا نكاد نشعر بوجوده قادر، إذا أذن الله، أن يصير قوة لا تقف في وجهها
الأبنية.
وهنا يعيد القرآن الإنسان إلى حجمه الحقيقي.
أنت لا تملك الهواء الذي يدخل رئتيك، ومع ذلك نتكبر!
ولا تملك أن تمنع قلبك من التوقف إذا جاء أجله، ومع ذلك تتجبر!
ولا تملك المطر ولا الريح ولا الليل ولا النهار، ومع ذلك قد تعيش وكأنك صاحب الملك!
إن الآيات الكونية لا تقول للإنسان فقط: هناك خالق.
بل تقول له أيضاً: اعرف مقامك.
وهذا هو الباب الذي ستدخل منه سورة الجاثية بعد قليل إلى مشكلة الكبر.

فالذي لا يتواضع أمام اتساع السماء، ولا أمام سر الحياة، ولا أمام تقلب الليل والنهار، ولا أمام قطرة المطر، كيف سيتواضع حين تأتية آية من الوحي تخالف هواه؟ لقد كان الكون كله يعدُّ الإنسان للانحناء أمام الحق.

لكن بعض القلوب نتعلم من الآيات، وبعضها يتعلم كيف يهرب منها. ومن هنا تنقلب نبرة السورة.

فالسماء مفتوحة.

والأرض مفتوحة.

والجسد مفتوح.

والليل والنهار مفتوحان.

والمطر والريح شاهدان.

ثم يأتي السؤال الذي يكاد يهز القلب من موضعه:

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾. أي حديث بعد هذا؟

إذا لم يوقظك الكتاب، ولا السماء، ولا الأرض، ولا جسدك، ولا الحياة التي تدب حولك، ولا الليل الذي يغطيكَ، ولا النهار الذي يكشف الأشياء، ولا المطر الذي يحيي الأرض، ولا الرياح التي تمضي بأمر ربها، فما الشيء الذي بقي كي يوقظك؟ هنا تبدأ مأساة الإنسان الحقيقية.

ليست مأساته أن الآيات غابت.

بل أن الآيات كثرت حتى ألفها.

وليست مشكلته أن الله لم يضع له دلائل في الطريق.

بل أنه يستطيع أن يسير وسط ملايين الدلائل، ثم يصل إلى آخر الطريق وهو يقول: لم أر شيئاً.

وهنا ستأخذنا الجاثية من مشكلة النظر إلى مشكلة أخطر:

ماذا يحدث حين يرى الإنسان الحق... ثم لا يريد الحق؟

ماذا يحدث حين تتحول المشكلة من نقص البرهان إلى استكبار القلب؟

هناك سنلتقي بذلك الإنسان المدهش في تناقضه:

يسمع آيات الله تتلى عليه، ويعرف أنها وصلت إليه، ولكنه يصير مستكبراً كأن لم يسمعها.

ومن هذا الباب سنعرف أن بين الأذن والقلب مسافةً قد تكون أوسع من السماوات والأرض.
وأن أشد أنواع الصمم ليس ألا يصل الصوت إلى أذنك.
بل أن يصل الحق إلى قلبك... ثم يأمره الكبر ألا يخفي.

حين يسمع الإنسان الحق... ولا يسمح له بالدخول
يا من تظن أن السماع يكفي، إن للجائئة حديثاً آخر عن الأذن؛ حديثاً مخيفاً، لأن الإنسان
قد يسمع كلام الله كاملاً، واضحاً، نازلاً على موضع الوعي منه، ثم يخرج من السماع كما
دخل.

بعد معرض السماوات والأرض، وبعد الخلق والدواب والليل والنهار والمطر والرياح، تأتي
السورة إلى الإنسان الذي وصلت إليه الآيات، ولكن شيئاً في داخله وقف على الباب
ومنعها من العبور:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۚ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُّ مُسْتَكْبِرًا ۚ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا
فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝﴾.

تأمل هذه الصورة النفسية الدقيقة.

إنه يسمع.

ليست المشكلة أنه بعيد عن الوحي، ولا أنه لم تبلغه الحجة، ولا أن الكلمات التبتت عليه
حتى عجز عن تمييزها.

يسمع.

ولكن بين السماع والاستجابة يقف شيء اسمه: الكبر.
وهنا تكشف الجائئة واحداً من أخطر أسرار الضلال: قد لا يكون الطريق إلى الله مسدوداً
بسبب نقص المعلومات، بل بسبب تضخم الذات.
فالحق إذا دخل على قلب متواضع قال صاحبه: ماذا يريد الله مني؟
أما إذا دخل على نفس استكبرت، فإنها تسأل سؤالاً آخر: ماذا سيبقي من سلطاني إذا
قبلت هذا الحق؟

وهنا يصبح النزاع في ظاهره حول الفكرة، لكنه في باطنه حول السيادة.
إن بعض الناس لا يرفضون الحقيقة لأنها غامضة، بل لأنها تطلب منهم أن يتنحوا عن
عرش أقاموه داخل أنفسهم.

القرآن يقول له: لست أنت المرجع الأخير.

وهواه يقول له: بل أنت.

القرآن يقول: عليك أن تتغير.

والكبر يقول: بل ينبغي للحقيقة أن تتغير حتى توافقتك.

القرآن يقول: اخضع.

والنفس تقول: ولماذا أخضع؟

ومن هنا جاء التعبير العجيب:

﴿ثُمَّ يَصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾.

الإصرار ليس خاطرة عارضة.

إنه إقامة.

أن يعرف الإنسان أن باب الرجوع مفتوح، ثم يختار أن يبقى حيث هو.

أن يسمع الحجة مرةً ثانية وثالثة، وكل مرة يزيد من تحصين نفسه ضدها.

أن يتحول الرفض من موقف إلى هوية.

ثم يبلغ الإصرار ذروته:

﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾.

وهنا الرعب.

لأن الإنسان قادر على أن يحو من داخله أثر ما سمع، لا حقيقة ما سمع.

يستطيع أن يتصرف وكأنه لم يُنذر.

وكانه لم يعرف.

وكانه لم تمرَّ به تلك الآية التي هزته ليلةً.

وكان ذلك الخاطر الذي أعاده لحظةً إلى الله لم يقع.

وكان الجنازة التي رأى فيها نهايته لم تُشيع.

وكان المرض الذي ذكره بهشاشته لم يمس جسده.

وكان النعمة التي أحاطته لم تأت من أحد.

وهكذا يصبح النسيان أحياناً صناعةً نفسيةً؛ لا لأن الحقيقة اختفت، بل لأن الإنسان لا

يريد الاحتفاظ بشهادتها ضده.

يا صاحبي، ربما تكون أخوف مسافة في حياة المرء هي المسافة بين قوله: عرفت، وبين قوله:

استجبت.

فكم من حق نعرفه ولا نسلم له؟

وكم من خطأ نعرفه ثم ندافع عنه لأن الاعتراف به سيكسر صورتنا أمام أنفسنا؟

وكم من مرة كان الاعتذار كلمةً واحدةً، لكن الكبر جعلها أثقل من جبل؟

إن الجائفة لا تحاكم طغاة التاريخ وحدهم.

إنها تقيم المحكمة داخل الصدر.
وتسألك في هدوء مزلزل: حين يأتيتك الحق مخالفاً لهواك، أيهما أكبر في قلبك: الحق أم
نفسك؟

حين يتحول الوحي في عين المستكبر إلى مادةٍ للسخرية
يا من تخشى على قلبك من القسوة، انتبه إلى الخطوة التالية؛ فلا استكبار لا يتوقف غالباً عند
عدم الاستجابة، بل قد يتدهور حتى يصبح استهزاءً بما كان ينبغي أن يُستقبل بالخشوع.
تقول السورة:

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.
قال: علم.

ولم يقل: جهل.

وهذه كلمة تستحق أن تطيل الوقوف عندها.

فالعلم وحده لا يصنع الهداية.

قد يعرف الإنسان الشيء، ثم يستخدم معرفته نفسها في بناء حجاب جديد.

قد يقطع كلمة ليضحك منها.

أو يسحب آيةً من سياقها.

أو يلتقط حكماً فلا يرى حكمته، بل يجعله مادة لمباهاة عقله على الوحي.

وهنا يفقد العقل وظيفته النبيلة؛ فبدل أن يكون أداةً لاكتشاف الحقيقة، يتحول إلى محامٍ
متفرغ للدفاع عن الهوى.

وهذه مأساة المعرفة إذا انفصلت عن التواضع.

فليس السؤال الكبير: كم تعرف؟

بل: ماذا فعلت بك معرفتك؟

هل جعلتك أقرب إلى الخشوع، أم أكثر إعجاباً بنفسك؟

هل وسّعت فيك مساحة السؤال الصادق، أم جعلتك سريع السخرية مما لم تحط به؟

إن العلم الحقيقي يكشف لك في كل باب تفتحه أبواباً أخرى لا تعرفها.

أما الجهل المغرور فيتوهم أن نافذةً صغيرةً أطل منها على جزء من الوجود تمنحه الحق في
إصدار الحكم على الوجود كله.

ولذلك يقابل القرآن السخرية بالعذاب المهين.

وكأن الجزء من جنس الداء.

لقد أراد المستكبر أن يسقط مهابة الحق بالسخرية، فجاءه يوم تسقط فيه مهابة نفسه.

وكم هي دقيقة هذه المقابلة!

فالإنسان قد يصنع لنفسه في الدنيا صورةً عاليةً؛ يضحك، ويستهزئ، ويحتقر، ويتصرف وكأنه فوق السؤال وفوق الحساب. لكن ذلك كله مبني على زمن مؤقت، وجسد مؤقت، وسلطان مؤقت، ومجلس مؤقت.

وحين ينتهي المؤقت تظهر الأبحام الحقيقية.

ولهذا تقول السورة بعد ذلك:

﴿مَنْ وَرَأَاهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ما كسبوا.

كم تبدو هذه العبارة واسعة!

مال كسبوه.

اسم صنعوه.

مكانة بنوها.

جماعة احتموا بها.

قوة جمعوها.

معرفة تباهوا بها.

تاريخ كتبوه لأنفسهم.

كل هذا يدخل في عالم ما كسبوا.

ثم تأتي الكلمة القاطعة:

﴿لَا يُغْنِي عَنْهُمْ... شَيْئًا﴾.

ليس قليلاً.

ليس بعض النجاة.

شيئاً.

إن الآخرة هي اللحظة التي تفقد فيها الأشياء قيمها الوهمية، ولا يبقى منها إلا ما كانت له قيمة عند الله.

هناك تكتشف أن بعض ما أفنيت عمرك في جمعه لم يكن ثروةً، بل حمولة.

وأن أشياء كنت تخشى فقدانها لم تكن تستحق كل ذلك الخوف.

وأن أشياء أخرى كنت تمر بها بلا اكتراث — ركعة خاشعة، دمعة في خلوة، صدقة لا يعلمها أحد، كلمة حق، عفو عند المقدرة، مقاومة لهوى — هي التي بقيت حين ذهب كل شيء.

وهكذا تعيد الجاشية تعريف الغنى.
ليس الغنى من كثرت في يده الأشياء.
الغنى من وجد في آخر الطريق شيئاً ينفعه.

هذا هدى... والكلمة التي لا تقبل أنصاف المواقف
يا طالب النجاة، اسمع كيف تختصر السورة أمرها كله في كلمتين:
﴿هَذَا هُدًى﴾.

ما أعجب هذه البساطة!
بعد السماوات والأرض.
بعد الخلق.

بعد الليل والنهار.
بعد المطر والريح.
بعد وصف المكابر والمستهزئ.
تأتي الكلمة كأن الطريق قد صار أمامك واضحاً:
هذا هدى.

ليس تسليّة فكرية.
ولا زينة ثقافية.
ولا نصّاً نضعه في موضع التبجيل ثم نمنعه من التدخل في حياتنا.
هدى.

والهداية معناها أن هناك طريقاً ينبغي أن تسلكه، لا مجرد فكرة ينبغي أن تعرفها.
فمن طبيعة الهدى أن يقود.
إذا رأيت علامة الطريق ثم قرأتها جيداً، وأُعجبت بجمال خطها، وكتبت دراسةً في تاريخها،
ثم سرت في الاتجاه المعاكس، فما الذي أفادتك به معرفتك؟
إن القرآن لا يريد قارئاً يتقن الحديث عنه فقط.
إنه يريد إنساناً تغرّر اتجاهه به.
ولذلك كان من أخطر الأوهام أن يظن المرء أنه قريب من القرآن لمجرد كثرة حديثه عن
القرآن.

قد تكون بينك وبين المصحف سنتيمترات، وبينك هدايته سنوات من المقاومة
الداخلية.

وقد يحفظ اللسان الآية بينما لم يتعلم القلب بعد كيف يطيعها.
إن الهدى ليس فيما تحفظه الذاكرة وحدها.

الهدى فيما يغيره الوحي في معاييرك.

وفي غضبك.

وفي حبك.

وفي خوفك.

وفي مالك.

وفي خصومتك.

وفي نظرتك إلى الدنيا.

وفي اللحظة التي تتعارض فيها منفعتك مع ما تعرف أنه الحق.

هناك يظهر مقدار ما وصل من القرآن إلى قلبك.

ثم تقول السورة:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

وبين هذا هدى ورفض هذا الهدى تنقسم الطريق.

فالإنسان لا يقف إلى الأبد في منطقة حيادية بين النور والظلمة.

كل اختيار صغير يرسم اتجاهًا.

وكل استجابة تبني فيك قابلية لاستجابة أخرى.

وكل إعراض يمهد لإعراض آخر.

حتى يصبح القلب، مع الأيام، الطريق الذي كرهه صاحبه.

البحر الذي يحمل سفينتك... ولا تعرف كم من الرحمة تحمله
يا من اعتدت النعمة حتى نسيت صاحبها، تأمل البحر.

تقول الجاثية:

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.
ليس البحر هنا منظرًا أزرق يريح العين.
إنه نعمة مسخرة.

والتسخير كلمة تعيد تشكيل نظرتك إلى العالم.

كم من قوانين الكون تعمل بحيث تستطيع أنت أن تعيش؟
كم من شروط دقيقة اجتمعت كي تستطيع السفينة أن تطفو، والريح أن تدفع، والماء أن
يحمل، والإنسان أن يعبر المسافات، وينقل رزقه، ويلتقي بالعالم؟
لقد دخل الإنسان البحر منذ آلاف السنين يطلب رزقه، وتجاراته، وأسفاره، ومعارفه، وهو
يتحرك داخل نظام لم يصنعه.

يصنع السفينة، نعم.

لكنه لم يصنع خاصية الماء.

ولم يخلق الريح.

ولم يضع قوانين الطفو.

ولم يصنع المادة التي يبني منها.

ولم يخلق العقل الذي اكتشف.

إنه يستخدم كونًا سابقًا عليه.

وهذا وحده كافٍ ليكسر وهم الاستقلال.

كل إنجاز بشري، مهما عظم، قائم في النهاية فوق هبات لم يصنعها الإنسان.

العالم قد يخترع آلة مذهلة، لكن من الذي أعطاه العقل؟

وقد يبني مدينة، لكن من الذي أعطاه الأرض ومادتها وقوانينها؟

وقد يزرع، لكن من الذي جعل البذرة تستجيب للتراب والماء والضوء؟

وقد يداوي، لكن من الذي أودع في الجسد قابلية الشفاء؟

إن الحضارة كلها، حين تُقرأ قراءة إيمانية صحيحة، ليست إعلان استقلال عن الله، بل

اتساعاً في اكتشاف ما أودعه الله في هذا العالم.

ولهذا ختمت الآية:

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

إذن ليست الغاية النهائية من التسخير أن نستخدم الأشياء فقط.

بل أن تقودنا الأشياء إلى الشكر.

وهنا يظهر الفرق بين عينين.

عين ترى البحر فتسأل: ماذا يمكن أن آخذ منه؟

وعين مؤمنة تسأل كذلك: من الذي أعطاني هذا؟

الأولى ترى المنفعة.

والثانية ترى المنعم من وراء النعمة، من غير حلول ولا تشبيه، وإنما باستدلال الخلق على

الخالق، والنعمة على المنعم، والتدبير على المدير سبحانه.

ثم تسع الدائرة حتى لا يبقى البحر وحده:

﴿وَيَخْرِجُ لَكُمْ مَاءً فِي السَّمَاءَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

جميعاً منه.

يا لها من كلمة إذا دخلت القلب أراحت فيه أشياء كثيرة!

ما يصل إليك من أسباب الخير، فإنما جرت أسبابه في ملكه.

الشمس التي تمد الحياة بالطاقة.

الأرض التي تحملك.

الماء الذي يرويك.

الجسد الذي يخدمك.

العقل الذي تفكر به.

المادة التي تبني منها.

والوقت الذي تتحرك فيه.

كلها ليست ممتلكات أصلية للإنسان.

إنها أمانات وهبات.

وحين يدرك المرء ذلك، يتغير معنى الملك في نفسه.

لا يعود يقول في أعماقه: هذا لي على معنى الاستقلال.

بل: هذا عندي على معنى الاستخلاف.

وهنا يولد الشكر الحقيقي.

ليس الشكر كلمة تقولها الشفتان عقب النعمة فحسب.

الشكر أن تعرف مصدرها، ثم تستعملها فيما يرضي واهبها.

المحطة العاشرة

القوة الحقيقية: أن تملك الغضب ولا يملكك

يا من تحسب أن القوة هي القدرة على الرد، اسمع هذا الأمر الذي يأتي وسط حديث
السورة عن الآيات والكون:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.
إنها تربية عجيبة.

فالسورة التي تدم المستكبر لا تريد أن تنشئ في المؤمن كبراً مضاداً.
والسورة التي تكشف ضلال الآخرين لا تريد أن تمنحك رخصةً في أن يتحول قلبك إلى
مستودع حقد.

هذا خطر خفي في طريق التدين: أن تعرف خطأ خصمك، ثم تسلل إلى قلبك لذة التفوق
عليه.

فتحول معرفة الحق من سبب للتواضع إلى وقود لعُجب جديد.

لكن القرآن يمنع هذا الانحراف.

﴿يَغْفِرُوا﴾.

لأن المؤمن لا يبني أخلاقه على أخلاق خصمه.

لا يقول: سأكون مثله لأنه كان كذلك معي.

بل يسأل: كيف يريد الله مني أن أكون؟

وهنا تظهر حرية من نوع أعلى.

فالإنسان الذي لا يستطيع إلا أن يرد الإساءة بالإساءة ليس حراً تماماً.

إن خصمه ما زال يحدد له سلوكه.

أساء إليه، فأجبره على الإساءة.

غضب منه، فأصبح غضبه قائد قراره.

أما الذي يستطيع أن يعفو حين يكون العفو هو موضع الرشد، فقد خرج من أسر رد
الفعل.

إنه لا يتحرك بما يفعله الآخرون، بل بما يمليه عليه ميزان أعلى.

وهذه سيادة على النفس .

ثم تأتي القاعدة:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ تُرْجَعُونَ﴾ .

كم تحمل هذه الآية من تحرير!

خيرك لا يضيع .

وشر غيرك لا يضيع .

ولست مكلفاً أن تمسك بميزان الكون بيدك .

هناك رجوع .

وهناك رب .

وهناك حساب .

إن جزءاً كبيراً من توتر الإنسان يأتي من شعوره أن عليه أن يأخذ كل حق بنفسه، وأن
يرد كل ضربة، وأن يصحح كل ميزان مختل فوراً .

لكن الإيمان بالرجوع إلى الله يضع في النفس سكينته العادلة المؤجلة .

ليس معنى ذلك ترك الحق أو إبطال مقاومة الظلم، بل معناه ألا يتحول طلب العدل إلى
عبودية للغضب .

افعل ما أمرك الله به .

ثم اترك الحساب الكامل لمن لا يضل ولا ينسى .

حين تصبح النعمة امتحاناً لا امتيازاً
يا من تقرأ التاريخ بحثاً عن أسباب الصعود والسقوط، انظر كيف تنتقل الجائحة من الكون
إلى أمة حملت كتاباً وعلماً ونبوة:
﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى
الْعَالَمِينَ ۝ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾.
كتاب.

وحكم.

ونبوة.

ورزق.

وتفضيل.

وبيّنات.

إنها سلسلة هائلة من النعم.

لكن السورة لا تعرضها لتقول إن النعمة ضمان دائم.
بل لتكشف أن أعظم الامتيازات الدينية يمكن أن تنقلب حجةً على أصحابها إن لم يقيموا
حقها.

ثم تقول:

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾.

مرة أخرى: العلم حاضر.

ومرة أخرى: المشكلة ليست دائماً الجهل.

إنها البغي.

يا لها من آية مرعبة لكل جماعة تحمل معرفةً دينية!

فالخلاف قد يتخفى في ثياب الفكر، بينما جذره النفسي حب الظهور.

وقد يتزين بالمصطلحات، بينما تحركه المنافسة.

وقد يرفع راية الدفاع عن الحق، بينما تحيي النفس في داخله ثأراً قديماً أو حسداً أو طلب
رياسة.

إن القرآن يدخل خلف اللافات.

لا يكتفي بما نسمي به معاركنا.

يسأل عن المحرك.

﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾.

وهذا يجعل الإنسان أكثر خوفاً على قلبه من خوفه على حجته.

قد تكون حجتك قوية، لكن ماذا عن نيتك؟

قد تنتصر في النقاش، لكن ماذا خسر قلبك أثناء الانتصار؟

قد ثبت أن خصمك أخطأ، لكن هل كنت تطلب ظهور الحق، أم ظهورك أنت؟

إن أخطر ما يحدث للمتدين أن يختلط الله في خطابه بنفسه؛ فيغضب لنفسه ويسميه غضباً لله، وينتصر لمكانته ويسميه انتصاراً للدين.

ولهذا يحتاج القلب دائماً إلى محكمة سرية لا يدخلها الجمهور.

هناك يسأل نفسه بلا خطابة:

لو ظهر الحق على لسان خصمي، هل سأفرح؟

لو ثبت أنني مخطئ، هل أستطيع الرجوع؟

لو لم يعرف أحد أن الفكرة فكرتي، هل سأظل حريصاً على انتشارها؟

هذه الأسئلة تكشف موضع البغي.

والجائئة حين تستدعي تجربة أمة سابقة لا تسمح لأمة لاحقة أن تقف خارج المראה.

فالقرآن حين يحكي لك عن الانحراف لا يمنحك مقعد القاضي فقط.

بل يطلب منك أن تجلس أحياناً في مقعد المتهم.

الشرعية: حين لا يكون الهوى مرجعاً للحق
يا من تريد طريقاً لا يتبدل كلما تبدلت رغبات الناس، ها نحن نبليغ كلمة مركبة في
السورة:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.
ها هنا يقف طريقان.

شرعية.

وأهواء.

وليس التقابل عارضاً.

فالشرعية طريق يأتيك من خارج رغباتك، ولذلك يستطيع أن يحكم عليها.
أما الهوى فيولد منك، ولذلك لا يستطيع أن يكون حكماً عادلاً عليك.
لو جعل الإنسان رغباته هي المعيار النهائي، فبأي شيء سيعرف أن بعض رغباته فاسد؟
إن القاضي لا يستطيع أن يكون هو المتهم نفسه في كل قضية.
ولهذا يحتاج الإنسان إلى ميزان أعلى منه.

إلى حقيقة لا يصنعها صباحاً ثم يغيرها مساءً حين تتغير مصالحه.
وهذه إحدى أعظم وظائف الوحي: أن ينقذ الإنسان من استبداد نفسه بنفسه.
نحن عادة نفهم الحرية باعتبارها أن يفعل الإنسان ما يريد.
لكن الجائفة تفتح أمامنا سؤالاً أعمق:

ومن الذي يحدد ما تريد؟

أليست الرغبة نفسها قد تستعبدك؟

أليس المدمن يفعل ما يريد في لحظة، بينما هو في الحقيقة أسير لما يريد؟
أليس الغاضب يصرخ لأنه «يريد»، ثم يندم لأنه اكتشف أن رغبته اللحظية لم تكن حريته
بل بئجه؟

إذن ليست الحرية أن تمتلك القدرة على طاعة كل رغبة.

الحرية الأعلى أن تمتلك القدرة على عصيان رغبة حين تعرف أنها تهدمك.
وهنا تأتي الشرعية لا لتقتل الإنسان، بل لتحرره من أكثر الطغاة التصاقاً به:
هواه.

ولذلك لا تلبث السورة طويلاً حتى ستضع أمامنا صورتها الكبرى:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾.

لكن قبل بلوغ هذه القمة، تذكّرنا:

﴿إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

من الذي تريد رضاه؟

هذا السؤال يختصر صراعات كثيرة.

فكم من إنسان يعرف الحق، لكنه يخاف أن يخسر جماعة.

أو مكانة.

أو جمهوراً.

أو صورةً صنعها لنفسه.

فيبدأ بتعديل الحقيقة قليلاً قليلاً حتى تتسع لسلامته الاجتماعية.

لكن الجائبة تقطع الطريق:

﴿لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

أولئك الذين تخشى سخطهم سيقفون معك في الجائبة أنفسهم.

وأولئك الذين تنازلت عن شيء من الحق كي تحتفظ بمكانك بينهم لن يحملوا عنك صفحةً

واحدةً من كتابك.

وهنا يصبح الإخلاص عقلاً نيةً أخرويةً، لا مجرد فضيلة روحية.

لأن العاقل هو الذي يرضي من يملك مصيره.

بصائر للناس... ولكن من الذي يفتح عينه؟
يا من تبحث عن النور، لا تسأل أولاً أين النور، بل اسأل: هل عيني مفتوحة؟
تقول السورة:

﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

لم تقل: هذا معلومات.

قالت: بصائر.

والبصيرة ليست مجرد معرفة الشيء.

إنها القدرة على رؤية حقيقته خلف ظاهره.

ترى الدنيا، لكنك تبصر فنائها.

ترى المال، لكنك تبصر امتحانه.

ترى القوة، لكنك تبصر هشاشتها.

ترى المصيبة، لكنك لا تحصر معناها في ألم اللحظة.

ترى الطاعة، فلا تراها عبئاً على رغبتك، بل نجاةً من عبودية الرغبة.

ترى الموت، فلا تراه انطفاءً مطلقاً، بل عبوراً إلى الحساب.

هكذا يصنع القرآن عيناً ثانية داخل الإنسان.

العين الأولى ترى السطح.

والبصيرة ترى المآل.

ولهذا كانت الدنيا خطيرةً على من فقد البصيرة؛ لأن ظاهرها مغرٍ جداً.

ظاهر القوة أنها دائمة.

وظاهر الشباب أنه طويل.

وظاهر المال أنه يجمي.

وظاهر الشهرة أنها ترفع.

وظاهر الهوى أنه يمنح اللذة.

ثم تأتي الأيام وتكشف أن كل ظاهر من هذه الظواهر كان يخفي تحته سؤالاً آخر.

وهنا يصير القرآن رحمة، لأنه يخبرك بحقيقة الأشياء قبل أن تدفع ثمن اكتشافها.

يقول لك عن الدنيا قبل أن تفارقها.

وعن الهوى قبل أن يستعبدك.

وعن الكبر قبل أن يحطمك.
وعن الآخرة قبل أن تصل إليها.
وهل الرحمة إلا أن يُريك الله الحفرة قبل أن تسقط فيها؟
ولهذا اجتمعت الكلمات الثلاث:
بصائر. وهدى. ورحمة.
تبصر بها.
وتمشي بها.
وتنجو بها.
وليست الرحمة دائماً أن يعطيك الله ما تحب.
قد تكون رحمته أن يكشف لك فساد ما تحب.
وقد تكون رحمته أن يمنع عنك طريقاً كنت تظنه سعادتك.
وقد تكون رحمته في آية أوجعت غرورك؛ لأن ألم الحقيقة ساعة أرحم من ألم الوهم عمراً كاملاً.
وهكذا تمهد السورة للمعركة الكبرى.
فإذا كان الوحي بصائر، فما الذي يعمي الإنسان عنه؟
وإذا كان هدى، فما الذي يسحبه إلى الطريق الآخر؟
وإذا كان رحمة، فلماذا يهرب بعض الناس منه؟
الجواب ينتظرنا في القلب.
هناك، في ذلك الموضع السري الذي قد يصنع الإنسان فيه معبوداً لا صنم له ولا معبد ولا كاهن، لكنه يطاع كما تُطاع الآلهة.
إنه الهوى.
وعند هذه الآية ستوقف الجائئة طويلاً؛ لأنها لا تكشف انحرافاً صغيراً في النفس، بل انقلاباً كاملاً في ترتيب العبودية:
﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾.
إنها ليست آية عن الآخرين فقط.
إنها مرآة ينبغي أن نقف أمامها وحدنا.
لأن أخطر الأصنام قد لا تكون منصوبة في ساحة مدينة.
قد تكون جالسة في أهدأ زاوية من قلب الإنسان.

حين يظن المسيء أن الطريقين ينتهيان إلى المصير نفسه
يا من أرهقك اضطراب الموازين في الدنيا، وتأملت لأنك رأيت الصالح والمسيء يمشيان
أحياناً في الشارع نفسه، ويأكلان من الرزق نفسه، وربما علت يد الظالم وانخفض صوت
المظلوم؛ لا تجعل صورة المحطة الأخيرة في الدنيا هي حكمك على عدل الله.

تقول السورة:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً
مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

إنها آية تهدم وهماً قديماً: أن تشابه الظروف يعني تشابه المصائر.
قد يسكن المؤمن والكافر المدينة نفسها.

وقد يمرض كلاهما.

وقد يفتقر كلاهما.

وقد يغني كلاهما.

وقد يموتان في يوم واحد.

لكن التشابه في مظاهر الحياة لا يلغي الاختلاف في حقيقتها.

فالإنسان ليس مجرد جسد مرَّ على الأرض ثم خرج منها.

هناك قلب اتجه.

وإرادة اختارت.

وحق عُرف.

وظلم اقترف.

وصلوات أُقيمت.

ومظالم تراكت.

وأبواب خير فُتحت.

وأخرى أُغلقت.

ثم يريد بعض الناس بعد هذا كله أن تكون الخاتمة واحدة!

﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

وما أعمق كلمة يحكمون هنا.

فالمسألة ليست شعوراً عاطفياً بأن الطيب ينبغي أن يكافأ فحسب، بل قضية عدل في صميم
بنية الوجود.

لو انتهى الصالح والمفسد إلى العدم نفسه، ولم يكن وراء الموت فصلٌ للحساب، لكان كثير
من المظالم قد مر بلا جواب.

قاتل مات في فراشه.

ومظلوم مات تحت يده.

طاغية عاش في القصور.

وأرملة خرجت من بيته مكسورة.

من يعيد الميزان؟

من يرد الحقيقة إلى موضعها؟

إن الإيمان بالآخرة ليس إضافة وعظية إلى تصور الكون، بل هو جزء من معنى العدل.

ولهذا تأتي الآية التالية مباشرة:

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْهِرُونَ﴾.
بالحق.

ليست السماوات والأرض لعبة.

ليست الحياة تجربة بلا غاية.

وليس التاريخ مسرحاً تُسدل ستارته قبل ظهور الحقيقة.

إن الكون الذي بدأ بالحق لا يليق بحكمته أن ينتهي بالعبث.

ولهذا جاء الجزء امتداداً لمعنى الخلق نفسه.

كأن الجائشة تقول لك: إذا كنت قد رأيت الحكمة في حركة الأفلاك، وفي المطر، وفي

خلق الإنسان، وفي تصريف الرياح، فلا تتوقف قبل أن ترى الحكمة في الحساب.

فالعدل الأخروي ليس غريباً عن نظام الكون.

إنه تمامه.

﴿وَهُمْ لَا يُظْهِرُونَ﴾.

يا لها من راحة ثقيلة المعنى!

لا أحد سيحمل ذنباً لم يرتكبه.

ولا خير صادق سيضيع.

ولا دمة خرجت لله ستفقد موضعها.

ولا مظلمة نسيها الناس نسيها الله.
قد تغيب الأوراق من أرشيف البشر.
وقد يموت الشهود.
وقد يغير القوي رواية الحادثة.
لكن هناك كتاباً لا يتلاعب به منتصر، ولا تحرقه سلطة، ولا يحويه النسيان.
وهذه الحقيقة وحدها كافية لأن تمنح المظلوم قدرةً على ألا يتحول الألم في داخله إلى كفر
بالعدل.
فالعدل قد يتأخر عن عينك.
لكنه لا يغيب عن ملك الله.

الصنم الذي لا يحتاج إلى حجر
يا صاحبي، ها نحن نصل إلى إحدى أخطر آيات السورة، وربما إلى أكثرها قدرةً على
اختراق الإنسان من الداخل:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ
غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.
لا تمر بهذه الآية سريعاً.

إنها لا تتحدث عن صنم منصوب في ساحة.
ولا عن تمثال تسجد له المجموع.
إنها تكشف صنماً يمكن أن يحمله الإنسان معه في كل مكان، من غير أن يراه أحد.
الهوى.

والخيف في الهوى أنه لا يطلب منك أن تسميه إلهاً.
يكفي أن تمنحه وظائف الإله في حياتك.
أن يكون هو الذي يقرر في النهاية ما تقبل وما ترفض.
ما تحب وما تكره.

ما تعتبره حقاً وما تسميه باطلاً.
أن تقر النص، فإن وافقك قلت: هذا جميل.
وإن خالفك بدأت تبحث عن مخرج لا عن هدى.
أن تأتيك الحقيقة، فلا تسأل: هل هي حق؟

بل تسأل: هل تناسبني؟
وهنا يقع الانقلاب كله.
فالعبد الحقيقي لا يسأل الوحي أن يتبع مزاجه.
بل يسأل نفسه أن تتعلم كيف تتبع الوحي.
الهوى ليس مجرد شهوة جسدية.

قد يكون حب الثناء هوى.
وحب الانتصار في الجدل هوى.
والرغبة في الظهور هوى.
والحسد هوى.

وحب السيطرة هوى.
 والتعصب لرأي كتبه قبل عشرين سنة قد يكون هوى.
 والإصرار على موقف فقط لأن الرجوع عنه سيجرح صورتك أمام الناس هوى.
 بل قد يتسلل الهوى إلى أكثر المواطنين التي يظن الإنسان فيها أنه مخلص للحق.
 قد يغضب لا لأن حرمان الله انتهكت، بل لأن شخصه لم يُحترم، ثم يمنح غضبه اسماً دينياً محترماً.
 وقد يرفض نصيحةً صحيحةً لأن الذي قالها خصم.
 وقد يقبل الباطل لأنه صدر من صديق.
 وهنا لا يكون ميزانه هو الحق.
 بل علاقته بالمتكلم.
 وهذا لون من ألوان عبادة الهوى.
 إن معيار سلامة القلب ليس أن تكون له رغبات.
 فالرغبة جزء من خلقه الإنسان.
 المعيار: من يقود من؟
 هل تقود أنت رغبتك بما أراك الله؟
 أم تقودك رغبتك ثم تطلب من العقل والنص أن يبررا الطريق؟
 وهنا يصبح العقل في يد الهوى محامياً خطيراً.
 فالإنسان الذكي يستطيع أن يخترع لرغبته أسباباً كثيرة.
 وقد لا يكذب على الناس فقط.
 قد يكذب على نفسه بمستوى رفيع من البلاغة.
 يسمى الأنانية «حقاً طبيعياً».
 ويسمى الكبر «حفظاً للمقام».
 ويسمى الانتقام «استرداداً للكرامة».
 ويسمى الخوف «واقعية».
 ويسمى الاستسلام للفتنة «مرونة».
 ثم ينام راضياً، لأن العقل قد أنهى له عملية التجميل.
 لكن الجائفة تنزع الطلاء كله بكلمتين:
 ﴿إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾.

ليست القضية إذن أن يكون لك هوى.
بل ألا تجعل الهوى مرجعك الأعلى.
إن الحرية التي يعدك بها الهوى قد تكون من أعمق أشكال العبودية.
فالذي لا يستطيع مقاومة شهوته ليس سيداً لها.
والذي لا يستطيع السكوت حين يغضب ليس مالِكاً لغضبه.
والذي يحتاج دائماً إلى إعجاب الناس لم يعد حراً منهم.
والذي لا يحتمل أن يقال له: أخطأت، صار عبداً للصورة التي صنعها عن نفسه.
ولهذا كانت العبودية لله تحريراً؛ لأنك حين تخضع للحق الأعلى تنكسر تحتك الآلهة الصغيرة
التي تنازع قلبك.

حين يُغلق الإنسان نوافذه من الداخل

يا من تخاف على قلبك، تأمل ترتيب الآية بعد الهوى:

﴿وَأَضَلُّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾.

ستمع.

وقلب.

وبصر.

المنافذ كلها حاضرة، ثم تقع المأساة: الأدوات موجودة، لكن الانتفاع بها يُسلب.

فليس كل من يملك عينين مبصراً بالحق.

ولا كل من يملك أذنين سامعاً له.

ولا كل من يملك قلباً حياً من جهة الجسد حي القلب من جهة الهداية.

إن للهداية سنناً.

والإصرار على الإعراض ليس لعبة بلا أثر.

كل مرة تقول فيها النفس للحق: ليس الآن، فإنها لا تبقى بالضرورة كما كانت.

وكل مرة تعرف فيها خطأً ثم تصر عليه، يصبح الرجوع القادم أصعب.

وكل استهانة صغيرة بالنور قد تزيد قدرة العين على احتمال الظلمة.

وهكذا تتكون القسوة تدريجياً.

نادراً ما يستيقظ الإنسان صباحاً فيجد قلبه قد مات دفعةً واحدة.

الموت المعنوي يحدث أحياناً ببطء.

تنازل صغير.

ثم تبرير.

ثم تنازل آخر.

ثم اعتياد.

ثم دفاع عن التنازل.

ثم غضب ممن يذكرك به.

ثم يصبح الذي كنت تستحي منه بالأمس شيئاً تدافع عنه اليوم.

وهنا يظهر معنى الختم في سياق رهيب: لقد اختار الإنسان طريق الإعراض حتى صار

الإعراض عقوبةً تلازمه.

وهذا يعلمنا ألا نستهن بأول انحراف.
فالبدايات صغيرة، لكن الطرق طويلة.
إن النفس التي لا تُحاسب وهي قابلة للتصحيح قد تبلغ حالاً لا تعود فيها ترى حاجتها إلى
التصحيح أصلاً.
وهذه أخطر نقطة.
أن تمرض ولا تشعر بالمرض.
أن تتكبر ثم تسمي ذلك قوة شخصية.
أن تحسد ثم تسميه نقداً موضوعياً.
أن تتبع الهوى ثم تظن أنك تتحرر.
لهذا ختمت الآية بالسؤال:
﴿فَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.
من يفتح ما أغلق إن لم يفتحه الله؟
ومن يعيد البصيرة إن سلبت؟
ومن ينقذ القلب من نفسه إذا أسلم إليها؟
وهنا يتحول التدبر إلى دعاء صامت:
يا رب، لا تكلفني إلى هواي.
لأن الإنسان قد ينجو من خصوم كثيرين، ثم يهلك على يد نفسه.

الزمن ليس إلهاً

يا صاحب السؤال عن الحياة والموت، ها هي السورة تنقلنا من عبادة الهوى إلى وهم آخر، وهم الإنسان الذي لا يرى وراء دوران الأيام يداً ولا حساباً، فيختزل الحياة كلها في الزمن:

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

ما أشد قرب هذه الجملة من كل عصر يظن نفسه حديثاً!

تتغير المصطلحات، لكن السؤال القديم يبقى.

ما هذه الحياة؟

من أين جاءت؟

وإلى أين تمضي؟

هل نحن مجرد ظهور عابر للمادة؟

هل الموت إطفاء نهائي؟

هل الزمن هو السيد الذي يأكل الكائنات ثم لا سؤال بعده؟

الجائفة لا تناقش هنا مجرد رأي فلسفي بارد.

إنها تكشف أثراً نفسياً خطيراً: إذا لم يكن وراء الحياة حساب، فإن معنى المسؤولية كله يتغير.

يصير الإنسان ابن اللحظة.

يأخذ ما استطاع.

يتمتع ما استطاع.

ثم ينتهي.

لكن القرآن يضرب أصل الدعوى:

﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

هذه واحدة من أعظم مفارقات الغرور الفكري: قد يقدم الإنسان إنكار الغيب بوصفه موقفاً علمياً، بينما يذكره القرآن أن نفي ما وراء التجربة ليس علماً مجرد أنه صيغ بلغة واثقة.

من شاهد العدم بعد الموت حتى يخبرنا أن وراءه عدماً؟

من أحاط بالوجود كله؟

من امتلك التجربة الكاملة التي تجيز له أن يقول: لا بعث؟
إن الإنسان الذي لم يعرف إلا شريحة صغيرة من الوجود قد يتحدث عن نهايته كلها بلهجة
من أحاط علماً بكل شيء..
وهنا يأتي القرآن ليفصل بين العلم والظن.
العلم له برهانه.
أما الظن فيستطيع أن يرفع صوته، لكنه لا يتحول بذلك إلى يقين.
إن الزمن ليس خالقاً.
الزمن مخلوق.
لا يमित بذاته.
ولا يحيي بذاته.
إنه إطار تجري فيه المقادير.
وكما لا نقول إن الساعة قتلت الإنسان لأنه مات عند الثانية عشرة، فلا يكون مرور الدهر
تفسيراً لحقيقة الموت.
الزمن يصف التعاقب.
ولا يخلق التعاقب.
وهذه التفرقة مهمة؛ لأن العقل قد يخلط بين وصف الظاهرة وبيان علتها.
ترى الورقة تسقط في الخريف، فقولك «إنها سقطت في الخريف» يحدد زمناً، لكنه لا
يفسر كل العلل التي أدت إلى سقوطها.
وكذلك قول الإنسان: مر الزمن فسات، لا يجيب عن السؤال الأكبر: من الذي قدّر
الأجل، وخلق الحياة، ثم نزعها؟

حين لا يبقى للمنكر إلا أن يطلب المستحيل
يا من رأيت كيف يختبئ الإنسان وراء السؤال أحياناً لا يعرف، بل ليؤجل الاعتراف،
تأمل قولهم:

﴿وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ جُحُومُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّوا بِآبَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.
سماها القرآن جحتم مع أن مضمونها ليس حجة حقيقية.

وكان في التعبير كشفاً لطريقة الإنسان حين يهرب من البرهان بطلب أمر لا يتعلق بصحة
البرهان.

يقال له: هناك بعث.

فيقول: أحيوا آباءنا الآن.

وكان عدم وقوع الآخرة داخل شروط التجربة التي يحددها هو دليل على أنها لن تقع.
إنه يريد أن يأمر الغيب بمشي يظهر له.

ويريد من الله أن يجعل نظام الوجود خاضعاً لتوقيت شكه.

لكن الحقيقة لا تحتاج أن تطيع شروط المنكر كي تكون حقيقة.

لو وقف إنسان أمام بذرة وقال: لن أصدق أنها شجرة حتى تجعلوها الآن شجرة مكتملة
أمامي، فلن يكون استعجاله حجة على فساد قانون النمو.
وهكذا البعث.

له موعد.

كما للموت موعد.

وكما لمحيثك إلى الدنيا موعد لم تستشر فيه، نفروجك منها وقيامك من قبرك ليسا تابعين
لمزاجك.

ولهذا يأتي الجواب في غابة الاختصار والسلطان:

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْعَلُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

تأمل الأفعال:

يحييكم.

يميتكم.

يجمعكم.

من الفاعل في المراحل كلها؟
الله.

أنت لم تمنح نفسك البداية.
فلماذا تتوهم أنك تملك النهاية؟
الذي أخرجك من عدمك إلى هذه الحياة لا يعجز عن إخراجك مرةً أخرى.
بل إن البدء نفسه أقرب شاهد في وعيك على إمكان الإعادة.
كنت شيئاً لا تذكره.
ثم صرت طفلاً.
ثم صرت الرجل الذي يقرأ الآن.
أي تحول أعجب من هذا؟
إن قيامك يوم القيامة ليس أول حدث خارق في قصتك.
وجودك نفسه هو الحدث الأول.

الملك الذي لم يخرج منه شيء
يا من تضيق رؤيتك لأنك تنظر إلى ملك البشر، وسلطاتهم، وحدودهم، وخرائطهم، اسمع
الجانثية وهي تعيد الوجود كله إلى مالكة:
﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾.
إنها الجملة التي تصغر أمامها كل الممالك.
ما الذي يملكه البشر حقاً؟
قطعة أرض داخل الأرض.
وقرة زمنية داخل عمر محدود.
وسلطة على أجساد لا يملكون إبقاء أرواحها فيها.
ثم يسمون ذلك ملكاً.
أما ملك الله فليس استعارة.
﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
كل ذرة داخلية فيه.
كل نفس.
كل زمان.
كل مكان.
كل قوة.
كل سبب.
كل أثر.
ومن هنا تصبح القيامة ليست دخولاً إلى عالم خارج ملك الله، بل انكشافاً كاملاً لحقيقة
الملك التي كان الغافل يغطيها عن نفسه في الدنيا.
كان يستطيع أن يقول: مالي.
أرضي.
قوتي.
جمهوري.
جيشي.
اسمي.

ثم تأتي الساعة، فإذا كل ضائر الملكية الصغيرة قد سقطت.

ولا يبقى إلا الملك الحقيقي.

﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾.

الخسارة هنا ليست خسارة شيء واحد.

إنها اكتشاف أن البناء كله قام على أساس باطل.

كم هو مؤلم أن يخسر الإنسان بعد أن جمع!

لكن أشد منه أن يكتشف أن ما جمعه كله لم يكن صالحاً لأن يصطحبه معه.

أن يصل إلى نهاية الطريق بيدين ممتلئتين مما لا ينفع، وقلب فارغ مما ينفع.

هذه هي الخسارة الكاملة.

وهنا تجثو الأمم

يا صاحبي، ها نحن نبليغ المشهد الذي حملت السورة اسمه.

كل ما مضى كان يسوقك إلى هنا.

السماء التي رأيته.

الأرض.

الدواب.

الليل.

النهار.

المطر.

الريح.

البحر.

الهوى.

العلم.

الكبر.

إنكار البعث.

كلها كانت طرقاً تنتهي إلى هذه الساحة.

تقول السورة:

﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةٍ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

توقف.

لا تستعجل الآية التالية.

دع هذه الصورة تقف وحدها في داخلك.

كل أمة جائية.

التاريخ كله على الركب.

الحضارات التي ملأت الأرض صحباً.

الجيوش التي مرت على المدن كأنها لا تُرد.

الملوك الذين كانت الأبواب تُفتح قبل وصولهم.

الأباطرة الذين ظن الناس أن أسماءهم ستبقى أطول من الجبال.

الخطباء.
الفلاسفة.
الأغنياء.
الفقراء.
المستكبرون.
المستضعفون.
الأمم التي انتصرت.
والأمم التي هُزمت.
كل ذلك التنوع البشري الهائل اختصرته كلمة واحدة:
جاثية.
إنه مشهد نهاية الكبرياء البشري.
الأقدام التي مشت متكبرة لم تعد قائمة.
الظهور التي رفضت الانحناء للحق هبطت أمام هول الموقف.
الألقاب سقطت.
الرايات طويت.
والمسافات الاجتماعية التي صنعتها الدنيا بين ملك وخدام، وبين مشهور ومغمور، لم تعد
هي مركز المشهد.
الآن هناك أمة.
وكتاب.
وحساب.
تخيل الصمت.
لا صخب الأسواق.
لا نشرات أخبار.
لا مجالس تفاخر.
لا هواتف ترن.
لا مواعيد مؤجلة.
لا أحد يقول: سأفكر في الأمر لاحقاً.
انتهى لاحقاً.

جاء اليوم الذي كان يبدو بعيداً جداً حتى صار هو الحاضر الوحيد.
 ويا لعظمة القرآن حين يسمي السورة باسم هيئة الجسد في ذلك اليوم!
 لم يسمها باسم المجادلة التي سبقت.
 ولا باسم البحر.
 ولا باسم الهوى، مع مركبة هذه المعاني.
 سماها الجاثية.
 كأن الاسم يريد أن يسكن في جسدك أنت.
 كلما قرأت اسم السورة تذكرت ركبتك.
 هذان المفصلان اللذان تحملانك الآن ستعرفان يوماً هيئةً أخرى.
 وهذه إحدى قوى التعبير القرآني: أنه لا يجعل القيامة فكرة ذهنية بعيدة فقط، بل يحولها
 إلى صورة جسدية.
 أمم جاثية.
 أجساد في وضع الانكسار.
 وكل أمة تنتظر.
 لكن ماذا تنتظر؟
 ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾.
 الكتاب.
 لقد عدنا إلى الكتاب.
 بدأت السورة بـ:
 ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾.
 وها نحن قرب نهايتها أمام:
 ﴿تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾.
 وبين الكتابين عاش الإنسان قصته كلها.
 كتاب نزل ليديه.
 وكتاب سُجِّلَ عليه ليحاسبه.
 الأول أخبره كيف يعيش.
 والثاني يخبره كيف عاش.
 الأول كان بين يديه يستطيع أن يفتحه أو يغلقه.

والثاني يُفتح يوماً ولا يملك إغلاقه.

ما أرهف هذه المقابلة!

لقد أعطاك الله في الدنيا كتاباً يتكلم إليك لتصلح ما سيكتبه عليك كتاب الآخرة.

فمن أعرض عن كتاب الهداية، واجه كتاب الشهادة.

ومن استجاب للأول، أحب أن يرى الثاني.

وهنا تأتي الكلمة التي تخلع من الإنسان كل قدرة على المراوغة:

﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ما كنتم تعملون.

لا ما كنتم تدعون.

ولا ما كنتم تتمنون أن يظنه الناس بكم.

ولا الصورة التي نجحتم في صناعتها أمام المجتمع.

الأعمال.

الحقيقة بعد سقوط الدعاية.

وكم من مسافة بين الإنسان كما يبدو، والإنسان كما هو!

في الدنيا يستطيع أن يدير صورته.

ينتقي ما يظهره.

يخفي ما يشاء.

يروى الحكاية بالطريقة التي تنصفه دائماً.

لكن القيامة ليست منصة لصناعة الصورة.

إنها موطن انكشافها.

حين يتكلم الكتاب

يا من اعتدت أن تروي قصتك بصوتك، سيأتي يوم تتكلم فيه القصة من غير أن تستأذنتك.
تقول السورة:

﴿هَذَا كِتَابُنَا يُنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.
ينطق.

أي تعبير أشد من هذا؟

الكتاب ليس أوراقاً صامتة في المشهد.
إنه شهادة.

ما فعلته في الخلوة.

ما قلته حين ظننت أن الكلمة ذهبت في الهواء.

ما كتبت ثم حذفته.

ما عقد عليه القلب.

ما صنعت اليد.

ما سعت إليه القدم.

ما أخفيته عن أقرب الناس إليك.

هناك نظام كامل للحفاظ لم يكن يحتاج أن تشعر به كي يعمل.

﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وما أرهف قوله: ما كنتم تعملون.

الحياة لم تكن فراغاً بين ميلاد وموت.

كانت مادة كتاب.

كل يوم صفحة.

كل قرار سطر.

كل نية سرّ يذهب إلى موضعه.

وكم تتغير حياة الإنسان لو عاش وهو يدرك أنه يكتب كتابه الآتي الآن!

ليس بقلبه.

بل بنفسه.

أنت مؤلف كتابك الأخرى، بمعنى أن أعمالك هي مادته.

لكن الفرق بين كتب الدنيا وهذا الكتاب أن كتب الدنيا يمكن تنقيحها قبل الطباعة. أما صفحات العمر إذا مضت فلا تعود إلا بتوبة تحو بإذن الله ما شاء الله أن يحو. ولهذا كانت التوبة رحمة لا تكاد العقول تحيط بمجالها. أن يسمح لك ربك، وأنت لا تزال في زمن العمل، أن تصحح صفحات قبل أن تغلق النسخة.

يا لها من فرصة!

ما دام القلب ينبض، فهناك موضع للمراجعة.
ما دام النهار يأتي، فهناك هامش يمكن أن تكتب فيه شيئاً آخر.
أما إذا جاءت الجائحة، فقد انتهى زمن التحرير.
وبداً زمن القراءة.

الرحمة حين تفتح أبوابها لأهل الإيمان
يا من أخافتك صورة الكتاب، لا تجعل الخوف يحجب عنك باب الرجاء.
تقول السورة:
﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾.
ما أجمل أنها قالت:
﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾.
كأن الرحمة فضاء يدخلون فيه.
لا قطرة عابرة.
ولا لحظة نجاة وحسب.
بل دخول.
احتواء.
أمان.
بعد فزع الجاثية، رحمة.
بعد انتظار الكتاب، رحمة.
بعد تعب العمر، رحمة.
وهنا يتعلم القلب أن النجاة ليست صفقة تجارية باردة بين عمل وجزاء.
العمل سبب.
لكن الدخول في رحمته.
فالعبد مهما عمل يظل فقيراً إلى رحمة ربه.
وهذا يحفظ العمل من العجب.
لو نجا الإنسان بميزان إحساسه بإنجازه فقط، لربما دخل عليه الكبر من باب الطاعة.
لكن المؤمن يعمل غاية ما يستطيع، ثم يقف بقلب فقير.
لا يقول: فعلت، إذن أستحق على الله.
بل يقول: فعلت بما أعاني الله، وأرجو رحمته.
وهذه العبودية في أجمل صورها: سعي بلا اغترار، ورجاء بلا اتكال.
ثم:
﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾.

ليس الفوز أن تُذكر طويلاً بعد موتك.
ولا أن تجمع أكثر مما جمع غيرك.
ولا أن تنتصر في كل خصومة.
ولا أن يصفق لك الناس.
الفوز الحقيقي هو ما يبقى فوزاً بعد الموت.
هذه قاعدة قرآنية قاطعة.
أي نجاح تنتهي صلاحيته عند القبر نجاح ناقص.
أما الفوز المبين، فهو الذي تعبر به القبر فتجده ينتظرك في الجهة الأخرى.
ومن هنا يعيد القرآن تعريف النجاح كله.
فقد يخسر رجل شيئاً من الدنيا ويحفظ دينه، فيبدو للناس خاسراً، بينما هو يقترب من
الفوز.
وقد يكسب آخر الدنيا كلها ويخسر نفسه، فيبدو منتصراً، بينما الخسارة الكبرى تعد
خطواتها نحوه.
لا تحكم على القصة قبل آخر صفحة.
وسورة الجاثية تعلمك أن الصفحة الأخيرة ليست في الدنيا.

الاعتراف الذي يأتي بعد انتهاء زمن الاعتراف

يا من تؤجل رجوعك إلى الحق، تأمل مأساة الاعتراف المتأخر:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

لاحظ أن السورة تعيدنا إلى أصل الداء:

فاستكبرتم.

بعد كل الرحلة نكتشف أن الكبر كان خيطاً ممتداً من البداية.

سمع الآيات فاستكبر.

وعرف شيئاً منها فاستهزأ.

واتبع هواه.

وأنكر البعث.

ثم وقف أخيراً جائئاً.

يا للمفارقة!

من رفض أن يخني في الدنيا للحق، انحنى في الآخرة للهول.

إن الإنسان لا يملك أن يحافظ على كبريائه إلى الأبد.

السؤال فقط: أين سينكسر؟

هل ينكسر لله في سجدة يحبها الله؟

أم ينكسر يوماً لا تنفع فيه السجدة التي جاءت بعد انقضاء التكليف؟

إن أجمل انكسارات الإنسان هي التي يختارها الله قبل أن يُجبره الموت على معرفة حجمه.

أن تسجد الآن طائعاً.

أن تقول: أخطأت، حين تستطيع المكابرة.

أن تعتذر، حين تستطيع تبرير نفسك.

أن ترد الحق إلى صاحبه، حين تستطيع الاحتفاظ به.

هذه كلها أشكال من الجثو الاختياري للحق.

وما أعظم الفرق بين جثو العابد وجثو المذعور.

الأول يسجد محبةً وطاعة.

والثاني يجثو رهبةً وقد انتهى زمن العمل.

حين كان الوعد يقال لهم فيضحكون
يا صاحب القلب الذي يريد يقيناً لا تهزه السخريّة، تأمل كيف تذكّرهم السورة بما كانوا
يسمعون:

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا
وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ﴾.

كانوا يقولون: لا ندري.

وكانت الساعة تبدو لهم فكرة بعيدة.

لكن المسافة بين الإنسان والآخرة ليست كما يتخيل.

هي موت واحد.

كل ما بينك وبين القيامة الشخصية التي ينقطع عندها العمل: أجلك.

وقد يكون أقرب من الخطط التي رتبها للعام القادم.

نحن نبني علاقتنا بالزمن على وهم خفي: أن المستقبل ملكاً ما لم يقع طارئ.

بينما القرآن يريك على العكس: المستقبل هبة إذا وصل.

ولذلك فالذكي أخوياً لا يؤجل أعظم قراراته إلى زمن لم يُعطَ له بعد.

سأتوب لاحقاً.

سأصلح الأمر لاحقاً.

سأعود إلى القرآن حين أفرغ.

لكن متى يفرغ الإنسان من الدنيا؟

كل باب يغلق يفتح خلفه باباً من الشغل.

والذي ينتظر فراغ الحياة ليصلح قلبه قد ينتظر حتى يأتيه الموت وهو مشغول.

حين تظهر الأعمال التي نسيناها

يا من نسيت أشياء فعلتها منذ سنين، الكتاب لم ينس:

﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

وبدا لهم.

كأن السيئات كانت موجودة، لكن الحجاب كان بينها وبين وعي أصحابها.

وفي الآخرة لا تُخلق الحقائق، بل تنكشف.

أشياء ضحكوا منها.

أشياء استصغروها.

أشياء قالوا: لا بأس.

أشياء مات أثرها في ذاكرتهم، لكنها لم تمت في ميزان الحقيقة.

ثم:

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

أحاط بهم.

الشيء الذي كان موضوع نكتة صار هو الواقع الذي لا منفذ منه.

وهذا من أشد انقلاب المشاهد.

في الدنيا كان المؤمن يتحدث عن الآخرة، فيبتسم بعض الناس ابتسامة العارف بالحياة.

وفي الآخرة يصبح الذي سُخر منه هو الحقيقة الوحيدة التي لا يستطيع أحد الهروب منها.

يا صاحبي، لا تجعل سخيرة الناس ميزاناً للحقيقة.

الحقيقة لا يتغير وزنها بكثرة الضاحكين منها.

وكم من حق مرّ بتاريخ البشر وحيداً ثم بقي، وكم من باطل احتشدت حوله الجموع ثم

ذاب.

النسيان الذي ليس نسياناً

يا من تخاف أن تنسى الله حتى تلقاه، اسمع هذا القول الشديد:

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

ليس النسيان هنا نقص علم، تعالى الله عن ذلك، فهو سبحانه لا يضل ولا ينسى، وإنما هو

تركهم في العذاب وحرمانهم من الرحمة جزاءً لإعراضهم عن لقاء ذلك اليوم.

﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾.

كيف ينسى الإنسان يوماً لم يقع بعد؟

ينساه بأن يعيش كأنه لن يقع.

وهذه هي صورة النسيان الأخطر.

قد تقول بلسانك: أنا مؤمن بالآخرة.

لكن برنامج يومك كله يقول: الدنيا وحدها هنا.

إذا لم تدخل الآخرة في قراراتك، فثمة قدر من نسيانها فيك.

حين تختار المال على الحق.

وحين تختار الصورة على الصدق.

وحين تختار شهوة عابرة على سلامة القلب.

وحين تظلم لأنك لا ترى الحساب قريباً.

هناك تتحول الآخرة إلى معلومة محفوظة لا إلى حقيقة حاكمة.

الإيمان الحقيقي بالآخرة ليس أن تعرف أنها ستأتي فقط.

بل أن تصل آثارها إلى يومك.

أن تدخل معك السوق.

والبيت.

والخصومة.

والكتابة.

والسلطة.

والسر الذي لا يراك فيه الناس.

إذا حضرت الآخرة هناك، فقد بدأت تتحول من عقيدة ذهنية إلى بصيرة.

حين نتدعنا الحياة لأنها قريبة

يا من أبهرك لمعان القريب، تقول السورة:

﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

﴿وَوَغَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾.

لم تقل: لأن الدنيا لا نعمة فيها.

ولا لأن الجمال فيها حرام.

ولا لأن المال في ذاته رجس.

قالت: غرتكم.

المشكلة ليست أن الدنيا موجودة.

المشكلة أن تقنعك بأنها كل شيء.

أن تجعل المؤقت يبدو دائماً.

والقليل يبدو كثيراً.

والقريب يحجب البعيد.

إن الدنيا بارعة في الخداع لأنها أمام الحواس.

ترى المال.

ولا ترى ثواب الصدقة الآن.

ترى الشهوة.

ولا ترى أثرها الأخروي الآن.

ترى صفوف المصنفين.

ولا ترى وقوفك وحيداً أمام الله الآن.

ولهذا يحتاج الإيمان إلى بصيرة تتجاوز ضغط المرئي.

الدنيا تقول: خذ الآن.

والآخرة تقول: فكر فيما يبقى.

الدنيا تقول: ماذا سيقول الناس؟

والآخرة تقول: ماذا سيقول الكتاب؟

الدنيا تقول: انتصر في هذه اللحظة.

والآخرة تقول: انتبه ألا تخسر نفسك أثناء الانتصار.
ومن هنا ليس الزهد أن تترك الأشياء كلها، بل ألا تسمح للأشياء أن تخدعك عن
حقيقتها.
استعمل الدنيا.
لكن لا تجعلها تستعملك.
امتلك المال.
لكن لا تسمح له أن يمتلك معيارك.
افرح بالجمال.
لكن لا تنس أنه عابر.
وابن في الأرض.
لكن لا تبني قلبك كله فيها.

النهاية التي تعيد الكون كله إلى كلمة واحدة
يا صاحبي، بعد هذه الرحلة الطويلة، بعد الآفاق والأنفس، وبعد الكتاب والهووى، وبعد
الأمم الجاثية، تأتي خاتمة السورة وكأنها النتيجة التي كانت كل الآيات تمهد لها:
﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.
فلله الحمد.

بعد أن رأيت كل شيء، ماذا بقي لك إلا الحمد؟
رأيت خلقه.
وتسخيره.
وهدايته.
وعدله.
وحسابه.
ورحمته.

فالحمد ليس كلمة خاتمة في السورة فحسب.
إنه النتيجة المنطقية للرحلة.

ثم:
﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.
كأن السورة تجمع المشاهد التي فرقها في بدايتها.
السموات التي كانت آيات.
والأرض التي كانت آيات.
والأحياء.
والأمم.
والتاريخ.
كلها تحت كلمة واحدة:
رب.
هو خالقها.
ومالكها.

ومديرها.

ومربيها.

واليه مصيرها.

ثم تأتي الكلمة الأخيرة التي تهدم كل أصنام النفس:

﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ﴾.

له.

لا لي.

ولا لك.

ولا للملك.

ولا لنعيم.

ولا لعالم.

ولا لحضارة.

ولا لأمة.

ولا لقوة.

له الكبرياء.

وهنا تفهم لماذا كانت الجاثية سورة معركة الكبر.

بدأت بـ العزيز الحكيم.

وانتهت بـ العزيز الحكيم.

وبين البداية والنهاية ظهر المستكبر، والمتبع لهواه، والمنكر للبعث، ثم انتهت الأمم كلها

جاثية.

كأن بناء السورة قوس هائل:

في أوله عزة الله وحكمته.

وفي وسطه ادعاءات الإنسان.

وفي نهايته عزة الله وحكمته مرة أخرى.

أما الإنسان فقد انكشف.

وكم هو بليغ أن تختتم الجاثية بالكبرياء بعد أن أرتك الأمم على الركب!

ليس المقصود مجرد تصوير هول اليوم، بل إعادة صفة الكبرياء إلى موضعها الذي يليق بها.

فالكبرياء لله وحده، على الوجه اللائق بجلاله، من غير تشبيه ولا تمثيل، سبحانه ليس كمثله شيء.
أما الإنسان فمقامه العبودية.
وحين يعرف مقامه لا يصغر.
بل يستقيم.
فأعظم كرامة للمخلوق أن يعرف ربه، ويعرف نفسه عبداً له.

من السماء إلى الركبتين

يا صاحبي، الآن فقط نستطيع أن ننظر خلفنا ونرى الطريق الذي قطعت بنا سورة الجاثية.

بدأنا برأس مرفوع إلى السماء:

﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ﴾.

ثم عدنا إلى داخل أجسادنا:

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾.

ثم شاهدنا الليل والنهار، والمطر، والريخ، والبحر، والتسخير.

ثم انتقلت السورة من الكون إلى مأساة الإنسان الذي يرى ولا يخضع.

سمع الآيات.

فاستكبر.

عرف منها شيئاً.

فاستهزأ.

ثم وصلنا إلى القلب، وهناك رأينا الصنم الأخرى:

﴿اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾.

ثم رأينا إنساناً ينكر البعث لأنه لم يستطع أن يرى وراء جدار الدنيا.

حتى إذا بلغنا نهاية الطريق، انشق الحجاب.

وقامت الساعة.

وجشت الأمم.

وفتح الكتاب.

ونطق.

ثم سقطت كل الدعاوى عند الحقيقة الكبرى:

﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

هذه هي الجاثية.

إنها ليست سورة تحبرك فقط أن القيامة آتية.

إنها تحاول أن تصنع فيك الإنسان الذي يستعد للقيامة قبل أن تأتي.

تريد أن تعيد إليك دهشة النظر حتى لا تموت بصيرتك من الاعتياد.

وتريد أن تكشف لك الهوى قبل أن يتخفى في هيئة عقل.

وتريد أن تكسر كبرك في الدنيا رحمةً بك، حتى لا تراه ينكسر في موطن لا ينفع فيه الانكسار.

وتريد أن تجعل الآخرة حاضرة فيك لا تخوف يشلك، بل كبوصلة تضبط الاتجاه.

بعد سورة الجاثية لن تكون الريح مجرد ريح.

ولا الرغبة مجرد رغبة بريئة بالضرورة.

ولا الموت نهاية.

فكل شيء صار يحمل وراءه معنى.

وهذا هو أحد أسرار القرآن: أنه لا يضيف إلى العالم أشياء جديدة، بل يعيد إليك العالم

نفسه وقد انكشف باطن دلالاته.

تعود إلى السماء نفسها، لكنها لم تعد السماء نفسها في عينك.

وتعود إلى جسدك نفسه، لكنه صار آية.

وتعود إلى أيامك نفسها، لكنها صارت صفحات تُكتب.

وتعود إلى رغباتك، لكنك بدأت تسألها: من منّا السيد؟

وتعود إلى الموت، لكنه لم يعد جداراً أسود، بل باباً وراءه كتاب وحساب ورحمة وعدل.

ثم حين ينتهي كل شيء فيك إلى الله، تفهم أخيراً أن أجمل ما يمكن أن يخرج به الإنسان

من سورة الجاثية ليس أن يعرف معلومات أكثر.

بل أن يصير أقل كبراً.

أشد يقيناً.

أكثر بصيرة.

وأعمق إحساساً بأنه يمشي في عالم كله آيات، وأنه يحمل قلباً قد يتحول إلى محراب أو إلى

عرش للهوى، وأن أمامه يوماً ستجتو فيه الأمم، فلا ينجو من انكسار ذلك اليوم إلا من

تعلم في الدنيا كيف ينخي للحق.

فإذا أغلقت السورة، لا تغلقها تماماً.

دع شيئاً منها يبقى مفتوحاً فيك.

دع السماء تذكرك.

وقل لنفسك كلها انتفشت:

سيأتي يوم تجتو فيه الأمم.

ثم قل لقلبك، وهو يطلب الأمان:

لكن رب ذلك اليوم هو نفسه الذي قال عن أهل الإيمان:
﴿فَيَدْخُلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ •
وبين الجثو والرحمة تتحدد قصة الإنسان كلها.
فاختر منذ الآن في أي كتاب تريد أن تجد نفسك، حين يبدأ الكتاب بالنطق.